إحتفالية الذكرى الرابعة لتأسيس المعهد العالمي للتجديد العربي

20 يونيو/ حزيران 2023

كلمة الدكتور خضير المرشدي- رئيس المعهد

الأخواتُ والأخوةُ الأعزاء

ضيوفَ وأعضاءَ المعهدِ العالميِّ للتجديد العربي .. أرحبُ بكم أجملَ الترحيب، وأُحييكم في هذه المناسبة التي نعتز بها كثيراً بوصفها كانت الفرصةَ التاريخيةَ لانطلاق مشروعِ التجديد العربيِّ الذي طالما يتساءل عن غيابه الكثيرُ من المفكرين والمثقفين والمهتمين بهذا الشأن من السياسيين وقادة الرأي العام.

إن مشروعَ التجديدِ العربي الذي يسعى المعهد لتحقيقه وفق آلياتٍ ووسائلَ ذكيةٍ مواكبةٍ لمنجزات العصرِ وتوجهاتِه، هو المشروعُ الذي نرى أن يملأ الساحة العربية نوراً ومعرفةً وابتكاراً وإبداعاً ليسهم العرب من خلاله في بناء منظوماتهم الفكرية على أسس جديدة وبطرق تفكير مبتكرة، يجددون فيها مفاهيمَهم الثقافية، باستلهام قيمِ حضارتِهم العربيةِ بخاصة، والحضارات الإنسانية وأفكارها بعامة، وبمواكبة التطور العالمي في مختلف المجالات.

نجددُ الترحيبَ بحضراتكم، متمنين لكم أوقاتاً مفيدة، ومتطلعين إلى أن تكون حلقاتُ الاحتفاليةِ الرابعة مجالاً لمناقشاتٍ ومداخلاتٍ جادةٍ على طريق مشروع التجديد .. ونهنيء انفسنا وابناء امتنا بهذا الانجاز.

ولا بد لي من التوجّهِ بالشكرِ والعرفانِ لكل الأخوات والأخوة الذين وضعوا جهداً وإن كان صغيراً في بناء هذا المعهد الطموح الذي بدأ يشق طريقه باتجاه أن يكون مدرسةً فكريةً عربيةً حديثة تشعُّ بنورها في أرجاء الوطنِ العربي الكبير لتسهم أو تحقق بالتعاون مع المؤسسات الفكرية والثقافية العربية النظيفة والجامعات ومعاهد العلم والفكر والمعرفة، الأطرَ الرصينةَ والمحتوى المعاصرَ لمشروعِ العربِ الجديد.

غالباً ما نسمع عن أهمية قيام مشروع عربي، وأنّه المفتاحُ السحريُّ لحل أزمات المنطقة، وبتحقيقه نظرياً وعملياً فإنه سيحرر بلداناً عربيةً قد احتُلت أو على الأقل قد يمنع احتلالها من

قبل كالأحواز وفلسطينَ والعراقِ، ويقف عائقاً أمام التدخلات الخارجية الإقليمية والدولية في شؤون الدول العربية في مغرب الوطن العربي ومشرقه، وبعضهم ذهب للقول لو كان للعرب مشروعٌ، لما تجرأت أمريكا على احتلال العراقِ وتدميرِه، ولما استطاعت إيران الهيمنةَ عليه وعلى أربعةِ عواصمَ عربيةٍ، وتدخلت في شؤون الدول الأخرى، وهكذا تثار تساؤلات وتُجرى حواراتٌ في كل مناسبة يتركزُ فيها الحديثُ على أزماتِ الدولِ العربية، ولعلّ أكثر من يتساءلُ عن هذا المشروعِ هم المثقفون العرب، حينما يشيرون إلى تساؤل افتراضي لو كان للعرب مشروعٌ مثلما للآخرين مشاريعُهم بغضّ النظر عن طبيعة هذه المشاريعِ واختلافِ أهدافها وتوجهاتِها، لَما وصل حالُ الأمة إلى ما وصل إليه!!

لكن التساؤل الأهم والأكبر، هل إن مشروعاً عربياً متخيَّلاً قد يضع حلاً لأزمة داخليةٍ قائمة، ويشكل مانعاً أمام تدخل خارجي حتمي؟؟

وهل كان للعرب مشروعٌ عربيٌّ وان بدا نظرياً، وانتهى لأسبابٍ داخليةٍ وتحدياتٍ خارجية؟؟

أم أنه على الدول العربية أن تبادر لبناء هذا المشروع، الذي لم يولد يوماً، في مواجهة مايحيطُ بها من مشاريع تستهدف حاضرَها ومستقبلَها مثلما استهدفَت من قبلُ ماضيها، وشوّهت تاريخَها وتراثَها فكرياً وثقافياً ومادياً ومعنوياً ومنجزاتٍ، إلى أن أسقطت حضارتَها بسقوط بغداد عام 1258م؟؟... ومثلما أجهضتِ المشروعَ القوميَّ وأسقطت منطلقاتِه الفكريةَ وإنْ كان في بداياته، واجتثَّت منجزاتِه ورموزَه باحتلال بغدادَ عام 2003م!!، ومن قبلها سقوطُ المشروعِ وما أصاب العربَ من تدهورٍ وتراجعٍ وإحباطٍ نتيجةَ هزيمةِ 5 حزيران القاسية عام 1967م.

ولنتساءلْ في السياقِ نفسه، هل الدولةُ العربيةُ الإسلاميةُ التي قامت بعد ظهور رسالة الإسلام... كانت مشروعاً عربياً كما يرى البعض، أم انها نتاج أمم عديدة من غيرِ العربِ قد ساهمت في صنعِها... رغم ان الرسالة قد انتشرت بفضل العرب وإيمانهم وتضحياتهم، وهم الذين كانوا قادتَها وحمَلةَ لوائِها.

لعل التاريخَ يحدثُنا عن حقيقةِ هذه الحضارةِ، وكيف أنها قامت وامتدت وانتشرت رغم ما أصابها من تصدع وفتن وحروب وارتداد وصراع كان جلُّه يجري على السلطة ومن أجل السلطة، منذ انطلاقتها الأولى بعد وفاة قائدها الأول الرسول الأكرم محمد (ص)، وانتهت

بسقوط الأندلس نتيجة تلك الصراعات البينية التي جرت بين الأخ وأخيه والابن وأبيه ليمتد هذا الصراع إلى عصرنا الراهن بصيغٍ أخرى.

هذه الظواهر جرت في إطار دولة واحدة امتدت شرقاً وغرباً عندما حققت وحدةَ القيادةِ والفكرِ والأهداف، من دون أنْ تلغيَ خصوصياتِ الدولِ والأمصارِ بل إنها احتفظت بخصوصياتِها التي كانت تتنافسُ مع خصوصياتِ شقيقاتِها من الأمصار والدول الأخرى، إلى أن وصلت المنافسةُ أحياناً حدّ الاقتتال والصراعِ الدمويّ، رغمَ القوةِ الأيديولوجيةِ والماديةِ والروحيةِ وسطوةِ القائدِ (الخليفة) التي حكمت تلك المرحلةَ التاريخيةَ حتى بدايةِ العصرِ الحديثِ الذي بدأ بعد الحرب العالمية الأولى.

فكيف لمثقفٍ أو سياسيٍّ أكاديميٍّ باحثٍ عن الحقيقة يتحدثُ عن مشروعٍ عربي في القرن الحادي والعشرين، يتجاهل ان العالم يشهدُ بناءَ مدنيةٍ معاصرةٍ تساهمُ في بنائها دولٌ كبيرةٌ وبجانبِها دولٌ صغيرةٌ نهضت من تحتِ الركامِ عندما تغلبت على ذاتها وتسامَت فوق جراحِها وحاربت نزعاتِها ونظّفت عقولَها من درنِ أيديولوجياتٍ مقيِّدةٍ ومكبِّلةٍ للعقلِ ومخالفةٍ للمنطق، وتخلصت من خطاباتٍ متعفنةٍ متآكلةٍ ومستهلَكة، وتغلبت على انتماءاتها الفئوية، وحققت هويتَها الوطنيةَ الجامعةَ تحت مفهومِ المواطَنةِ الحقيقية، وصنعت محتواها الفكريّ والعمليّ في اعتمادِ تنميةٍ وطنيةٍ وإنسانيةٍ شاملة، استثمرت فيها بعقلِ الإنسانِ ، وركزت جهدَها على تثويرِ قدرته في مجالِ الابتكارِ والإبداع في مجالات العلم والتكنولوجيا الرقميةِ وتطويرِ مهاراتِه في العلومِ الإنسانيةِ كي تحققَ (وقد حققت) بناءَ مجتمعِ المعرفةِ والتعليمِ والتعلّمِ الذي يقترنُ بالمواطنةِ حتماً والذي يشكل القاعدةَ لبناءِ أيّ مشروعٍ للنهضةِ المعاصرة (حيث لا تنميةَ ولا إبداع ولا ابتكارَ ولا اختراع ولا تعليمَ ولا مواطنة أو نهضةً يمكن لها أن تتعايشَ مع نزعات وصراعات أصوليةٍ دينية وطائفية أو قومية متعصبةٍ أو قبَليةٍ متخلفة، أو استبدادٍ وتعسفٍ وفساد، أو تدخلاتٍ وأطماعٍ خارجيةٍ هدفُها الهيمنةُ والاستعباد).. انطلقت هذه الدولُ في تحقيقِ نهضتِها، وضمان مستقبلِها استناداً الى مبدأ استثمارِ الإمكانات البشريةِ قبل المادية، حيث إن جودةَ الإدارة وحكمةَ القيادةِ هي المفتاحُ للنهضة وإن شحّتِ الثرواتُ والإمكانات.

ولعل هذه العناصر تمثل أهم التحديات التي تواجه دولاً بعينها، منها دولٌ عربيةٌ لتُعيقَ إسهامَها في أن تكونَ جزءاً من المدنيةِ العالميةِ المذهلة، في سرعةِ إنجازاتها العلمية والتقنية الذكية والقائمة على المنافسة في الاكتشاف والابداع والتعلّم والتفكير الواعي.

يتأسسُ على هذه الحقائق، طبيعةُ المشروعِ العربي الذي ينبغي أنْ ينشأَ وفقَ رؤيةٍ براغماتيةٍ عصريةٍ لا تتأثرُ بفرضياتٍ مسبقةٍ ولا يتقيدُ بنظرياتٍ أصوليةٍ متخلّفة..

رؤيةٍ تحققُ المصلحةَ الوطنيةَ لكلِّ دولةٍ عربيةٍ، وتعززُ الاحتفاظَ بخصوصيتِها، واستثمارِ امكاناتِها الماديةِ والمعنويةِ وتوظيفِ قواها الناعمةَ والذكيةَ والخشنةَ ممثلةً بعنصرِ الطاقةِ والاقتصادِ وقدراتِ أبنائها في الابتكارِ وتطوير المهارات؛ لتسهمَ في بناءِ المدنيةِ المعاصرةِ في الوقت الذي تجسد فيه بقوةٍ .. عمليةَ الانتماءِ لعالمٍ عربيٍّ كبيرٍ يتشكلُ وفقَ مبدأ المواطنةِ العربيةِ الإنسانيةِ التي ينبغي أن تشكلَ مرجعيةً فكرية وثقافية للإنسان العربي، وحالةَ انتماءٍ جغرافيٍّ وتاريخيٍّ له، تحقق حريةَ اختياراتِه وانتماءاته الفكريةِ وفقَ ما يرغبُ، وحسبما يؤمن. وتضمنُ له حريةَ إقامتِه وعيشه بكرامةٍ حيثما يشاء في وطنٍ عربيٍّ كبيرٍ تنتظمُ فيه الحياة بتشريعاتٍ قانونية تحقق التوازنَ بين حقوق الإنسان العربي وواجباتِه تجاه الدولة التي يختار أن يعيش فيها والتي بمجموعها تسهم بتعزيز مبدأ المواطنة العربية في نوع من التكامل والتعاون الاقتصادي والعلمي والتقني والمعرفي، والتكافؤ في الفرص بين فئات المجتمع العربي وأثنياته واحترام الارادات والمصالح المشتركة لهذه الاثنيات، وبمستوى من التنسيق والتوافق في السياسة ووحدة الفكرِ والتوجهِ والمصير .

لعل هذه أهمُ عناصرَ ومرتكزاتِ قيامِ مشروع عربي معاصر يستوعب الحاجاتِ الوطنيةَ لكل دولة عربية، ويتفاعل مع المتغيراتِ الإقليميةِ والدوليةِ بوحدةِ الموقفِ الذي يتشكل في إطار حوار عربي - عربي جادّ ضمن اطر قانونية ومؤسساتٍ دستورية للتكامل والتعاون والانسجام.

الاخوات والاخوة الحضور

لتحقيقِ النهضةِ والمشروعِ الحضاريّ، ينبغي عدمُ الخوضِ في التنظير والتسييس والأيديولوجيا التي أحاطت به وشكلت محتواه في فتراتٍ مضت، وحرمتْه من فرصة أنْ يكونَ قدوةً في التغيير والتجديد، ليتحول إلى قوةِ سحب للوراء، والاستقرار في قعر التاريخ، أو أنْ

يكونَ قوةَ قهرٍ واستبدادٍ في الشعب ضمن الدولة الواحدة، أو منطلقاً للعدوان ضد دول أخرى. كما حصل في الاقليم في العقود الماضية، وفي أوروبا لقرون خلت عندما تحول المشروع بفعل الأدلجة والتسييس وسلطة رجال الدين والإقطاع من قدوة في النهضة، إلى قوة مستعمرة متسلطة.

عندما يتحدث بعضُ السياسيين عن أهمية ادلجة المشروع العربي، فينبغي عليهم أنْ يدركوا انهم يُدخلون هذا المشروعَ في دهاليز أيديولوجيات متباينة، وأحياناً متناقضة ومتصارعة بين بعضها، ليفرضوا إحداها التي كسبت الصراع، ليتحول المشروعُ بعدئذ، إلى أداة قهر وكبت وإلزام، وهو الأمر الذي يتناقض مع طبيعة النهضة التي تقتضي توفرَ حريةِ التفكير والضمير والرأيِ والانتماءِ والاختيار.

من البديهيات الثابتة، إن المشروع النهضوي فشل بعد تحوّله التدريجي من البراغماتية الوطنية إلى الأدلجة تحت مبرر التخلص من الاستعمار والهيمنة الغربية، معتمداً بذلك على افكار دينية اصولية أو قومية متعصبة أو ماركسية مستغربة او قبَليةمتخلفة أو غيرها، أو بتقليد ثقافة الغرب طريقاً للنهضة، وعوضاً عن اعتماد عناصر عملية تقدم هدف النهضة على أي هدف أيديولوجي تنظيري طوباوي مجرّد من أية قيمة عملية .. ساهمت الحركات الفكرية في الوطن العربي في ترسيخ مفاهيم أيديولوجية أقفلت العقلَ العربي وجعلته أسير شعاراتِها وخطاباتها، ولم تقدمِ البديلَ للثقافة السائدةِ في الوطن العربيّ القائمة في معظمها على الأساطير والأفكار المتخيّلةِ والحالمةِ، وشكلت بمجموعها سببَ التخلف والتراجعِ الذي ينبغي مواجهتُه بمشروع التجديد والنهضة ..

ولنأخذ الصينَ المعاصرةَ مثالاً، عندما غادرتْ مفهومَ الأدلجةِ الماركسيةِ المغلقة، وانتهجت مبدأَ البراغماتيةِ الوطنيةِ في بناءِ مشروعِ النهضة، الذي كان همُّه الوحيدُ تحقيقَ مصلحةِ الصينِ الوطنيةِ، وخدمةَ المجتمع الصينيّ، وتحقيقَ الإنجازاتِ العظمى في مجالات العلم والتكنولوجيا الرقميةِ والمعرفةِ والتنميةِ الإنسانية والثقافة، مقرونةً بحنكةٍ في التعامل مع الاحداثِ الدولية، وحكمةٍ في مواجهة التحديات الكبرى، يؤكد سلامةَ المنهج الذي ينبغي أن تستفيدَ منه الدولُ العربية في بناء مشاريعها الوطنية التي بمجموعها تشكل محتوى المشروع العربي الذي ينبغي ان يقوم حتماً على التعددية واحترام الخصوصية ..

ولعل التوجة الصينيّ يتماهى مع التوجهات العربية في ثلاثينيات القرن الماضي، وتوجهات بعض الدول العربية حالياً، التي نشأت على فكرة براغماتية وطنية همّها الوحيد خدمة المجتمع العربي وتحقيق نهضته، مُفادُها البحثُ عن الحقيقةِ أياً كان مصدرُها، ما دامت تخدمُ الهدفَ الذي لا يتغير المتمثلَ في التغيير ذاته .

ختاماً .. دعوني أن أترحمَ على زملائنا الذين غادرونا، ونسألُ اللهَ لهم الرحمة، ونوجهُ التحية لكل من غادر المعهدَ من الأحياء دون استثناء لأحدهم، وأشكركُم على حسنِ الاستماع متمنياً لكم دوامَ الصحةِ والسلامة والعطاء، وإلى لقاءات أخرى مع أسمى اعتباري ومحبتي وتقديري